الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزراة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

المحاضرة الحادية عشرة:

ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

نحاول في هذه المحاضرة ملامسة ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي المعاصر وذلك بالارتكاز على نموذج الشعراء الروّاد معرجين على مفهوم الغربة والاغتراب كإحساس قديم ومعروف منذ أن عرف الإنسان الحياة، وبدأت طموحاته تزداد وأحواله تتبدّل تبعاً لتغيّر الظروف، وتبعاً للمؤثرات التي تؤثر في بقاء الإنسان أو عدمه، وتنشأ ظاهرة الاغتراب بسبب عوامل وأزمات عانى منها الفرد وواجهها وفق ما تقتضيه طاقاته العادية والروحية، فتبدأ البواعث النفسية تلعب دورها في تنمية هذه الظاهرة، فقد تقوده إلى التمرد والعصيان، أو الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات.

فالاغتراب قضية تناولها الأدباء والفلاسفة والمفكرون بالبحث والاستقصاء، وقد عانى الإنسان والمثقف خاصة من الاغتراب واتسمت ردود أفعاله بين الانسحاب من واقعه تارة والتمرد الفردي والثورة تارة أخرى، وبالهجرة إلى الخارج بحثا عن فرص أفضل للحياة.

وإذا انعطفنا نحو الشاعر العربي المعاصر، نجد أن الاغتراب بات طردياً نتيجة تعقد الحياة وتعفن أوضاع المجتمع ولا سيما الشعراء الروّاد "بدر شاكر السياب"، "نازك الملائكة"، "عبد الوهاب البياتي" فقد عانوا من الاغتراب وتذوقوا مرارة الألم ليحاول كلّ منهم بقدر طاقاته الروحية مواجهة مجتمع تراجعت فيه القيم الروحية والمثل، وافتقد شعبه أواصر المحبة والبعد الإنساني. ما يجعلنا نتساءل حول ما مدى عمق تجربتهم الإبداعية التي رسمتها تجربتهم الحياتية في إبراز تيمات الاغتراب في منجزهم الشعري؟.

أولا- مفهوم الغربة والاغتراب لغة واصطلاحاً

1- لغةً

تعرف الغربة والاغتراب في لسان العرب على أن الغَرْب : الانسحاب والتنحي عن الناس، وقد غرب عنا يغرب غرباً وأغربه : نحاه والغربة والغرب: النوى والبعد، ويقال غرب في الأرض وأغرب: إذا أمعن فيها والتغريب: النفي عن البلد، يقال: أغربته وغربته إذا نحّيته وأبعدته.

والتغرّب: البعد والغربة والغرب: النزوح عن الوطن والاغتراب والتغريب، كذلك نقول: تغرب واغترب فقد غربه الدهر، ورجل غرب وغريب: بعيد عن وطنه والغريب: الغامض من الكلام[1].

2- اصطلاحاً

يمكن القول أن مفهوم (الغربة) قد ورد بدلالات مختلفة عند الأدباء والقصاصين عموماً حسب الأحوال والتنوعات التي يمكن ردّها إلى أساس مؤداه أن «الغربة تتمثل بالشعور الذي يمكن أن يشعر فيه الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه وموطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين يضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه»[2].

وأما في المعجم الأدبي، «فالغربة تعني عاطفة تستولي على المرء، وبخاصة على الفنانين لشعورهم بالبعد عما يرغبون»[3].

وقد عرف بعضهم الاغتراب على أنه: «عملية ضرورية تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالاً وثيقاً»[4]، «فالمرحلة الأولى تتكوّن نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي، ويتدخل وعي الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية، أما المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه إنساناً مغترباً على وفق الخيارات المتاحة أمامه»[5].

ويبدو أن غربة شعراء الروّاد لا تخرج عن نطاق المراحل المذكورة ، فأحس السياب ونازك الملائكة والبياتي بيقين المثقف أن معركته ضد القوى المحافظة خصوصا في تلك المرحلة التي ارتبط بها العراق آنذاك بعجلة الاستعمار ومصادرة هذا الأخير كل الحريات العامة والشخصية، وفي ظل انعدام تكافؤ قوى الصراع، فقد وجدوا أنفسهم غرباء في مجتمع قاسي، ليتابعوا مواجهة هذه المأساة برد فعل مناسب وفق قدراتهم ووعيهم بأن التمرد الفردي أحد الأساليب الرافضة للسلطة الحاكمة.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار العرب، بيروت، لبنان، ج1 مادة الغرب، ص 637
[2] ينظر: عبد القادر حميد زيدان، التفرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط1، 2003م، ص 7
3 عبد النور صبور،المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط1، 1984م، ص 186
4 حليم بركات، غربة المثقف العربي، مجلة الستقبل، عدد2، تموز 1998م، ص 106
5 المرجع نفسه، ص 106

ومن خلال دراسة النص الشعري، وعند الإحاطة بالأحداث والمواقف التي عاشها الشعراء، نجد أن اغترابهم لم يكن واحداً، بل تعدد واتخذ أنماطاً مختلفة لنجد الاغتراب الذاتي، والاجتماعي والسياسي والعاطفي والمكاني والروحي.

ولا بد للإشارة إلى أن مظاهر الغربة عموماً واحدة مثل العزلة أو شبه العزلة، والشكوى، والتطلع والتي تجتمع في بوتقة واحدة وهي الاغتراب الذاتي، باعتبار الذات هي الأصل في توليد الاغتراب.

ثانيا- أنواع الغربة والاغتراب

1- الاغتراب الذاتي

إن حالة الإخفاق والخيبة التي تحصل للإنسان الذي يريد تحقيق معيار الذاتية الخاصة به تجعله يعايش الألم ويتملكه اليأس وعدم الرضا، لعدم استقرار ظروف الحياة التي يعد نفسه لعيشها.

2- الاغتراب الاجتماعي

وهو شعور الفرد بالاغتراب في مجتمعه نتيجة تعرضه للتهميش والتجاهل ومن مظاهره عدم الشعور بالانتماء.

أما عند "السياب" فتبدأ غربته الاجتماعية في "جيكور" حيث تقوده إلى «تجارب متبعة بالمرارة والألم... ومن أبرزها تجاربه في الحب والثورة، والحاجة، والحنين إلى الماضي، والمرض الوبيل»[1]. وهذه الغربة ما فتئت تولد من رحم ظروف لم يكن للسياب يد فيها منها دمامة وجهه وهزل جسمه ويصف ذلك قائلاً:

وَاهِيَ الكَيَانِ كَأَنَّ خطباً هَدَّهُ
ذَاوِيَ الشفاهِ لِطُولِ مَا يَتَنَهَدُّ
وهوالمعطّل من قوامٍ فارغ

[1] داود البصري عبد الجبار، بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط2، 1986م، ص 07

يسبي العُيُون ووجْنة تتوَرَّدُ[1].

«ورغم هيئته الخلقية لم يعجز "السياب" عن كبح إبداعه الشعري وتصدّر المناسبات، وربما عجزه عن التغاضي عن قبح وجهه كان وحده كافي لأن يشكّل بؤرة اغتراب حاد»[2]، وتتضافر الأحزان والآلام وفقدان حنان الأم وهو في السادسة من عمره ليلاحقه في كل مكان وينغص عليه حياته في كل حين فالموت الذي اختار أمه أصبح خريف طويل الليالي فيقول:

فِي لَيَالِي الخريف الطوال
آه لو تعلمين
كيف يطغي عليَّ آلامي والملال!؟
في ضلوعي ظلامُ القُبُور السجين
فِي ضُلُوعِي يصيح الرَّدى
بالتُراب، الذي كان أمي رغداً
سوف يأتي فلا تقلقي بالنَّحِيب
عالم الموت حيث السُّكونُ الرَّهِيب[3].

ومن صور غربته الاجتماعية موت جدّته، وزواج أبيه، غاب مصدر الحنان الذي احتضنه بعد رحيل أمه ويقول فيها:

جدّتِي مَنْ أَبُثُّ بعدكِ شكــوايَ طَوَانِي الْأَسَى وَقَلَّ مُعِينِـي
أَنتِ يَا مَنْ فَتَحْتِ قَلْبَكِ بِالأمْسِ لِحُبّي أوصدْتِ قبرَكِ دُونِي[4].

[1] بدر شكار السياب، الديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، مجلد2، 1979م (قيتارة الريح)، ص 337
[2] عيسى بلاطة، بدر شكار السياب حياته وشعره، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، 1971م، ص 153
[3] بدر شاكر السياب، الديوان، (أزهار وأساطير)، مجلد1، ص 68
[4] بدر شاكر السياب، الديوان، (البواكير)، مجلد2، ص 104

الجدّة التي فتحت قلبها بالأمس، أوصدت قبرها دونه اليوم وبذلك تمتد غربة الشاعر، ويتضاعف ألمه مع زواج أبيه وتسدّ عليه أبواب العطف ويتآكله الحرمان، وتغزوه الغربة.

وفي نفس السياق نجد "نازك الملائكة" تعاني من الغربة الاجتماعية، وكانت مدخلاً لغربتها النفسية حيث حاولت الشاعرة رفض التقاليد الاجتماعية الصارمة، التي تحرم المرأة حريتها، وعامل آخر ساهم في تشكيل غربة "نازك" الاجتماعية واضطرتها إلى الاعتزال والاحتماء بالليل والهرب من النهار، وهذا الهروب من «حياة الواقع الخشن التي يمثلها النهار، إلى حياة الحلم والمثال التي يمثلها الليل»[1] وفي هذا تقول:

إِنْ أَكُنْ عَاشِقَةَ اللّيْلِ فَكَأَنِّـــي مشرق بالضوء والحب الـــوريق
وجمال الليل قد طَهَّرَ نفْسِـــي بِالدُّجَى والهمس والصمت العميق
أبداً يملأ أوهامـــي وحسّـــي بمعاني الرُّوحِ والشعر الـــرقيق
فدعوا لي لَيْلَ أَحلَامِي وَيَأْسِي ولَكُمْ أَنتُمْ تَبَاشِيرَ الشـــــــروق[2]

أما الموت فهو «واحد من المشكلات التي قادت نازك الملائكة إلى فكرة العدم في مرحلة الشباب»[3] فالحياة عند الشاعرة اغترابا مرحلياً، يوصل إلى الموت وهو اغتراب أبدي فتقول:

أَيُّهَا المَوْتُ وقفَة قَبْلَ أنْ تغرّى بِجِسْمِي سُكُونَكَ الْأَبَدِي
آه دعْنِي أملاعُيُونِي مِنَ الْأَنْوارِ وارحم فُؤادِي الشاعريا[4].

تعكس هذه الأسطر الوعي اليقظ والوقفة التأملية لمعنى الوجود وهذا نتاج قراءاتها الفلسفية وتطلعها لأبعد ما يفكر فيه البشر.

[1] جابر عصفور، رمزية الليل قراءة في شعر نازك الملائكة، دراسات في الشعر والشاعرة، نخبة من أساتذة الجامعات إعداد وتقديم واشتراك دكتور عبد الله أحمد مهنا، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1985م، ص 513
[2] نازك الملائكة، الديوان (عاشقة الليل)، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2، 1971م، ص 493-494
[3] عبد الرضا علي، نازك الملائكة دراسات ومختارات، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1987م، ص 56
[4] نازك الملائكة، الديوان (عاشقة الليل)، مصدر سابق، ص 505

ويبدو أن عبد الوهاب البياتي لم يسلم هو الآخر من الغربة الاجتماعية والتي كانت تدور حول الحب والعزلة والليل مثل نازك فنجده يقول:

آمنْتُ بِاللّيْلِ الّذِي لَا يَنْتَـــــــهِي ودَفنْتُ فِي جُنْحِ الظلامِ صَبَاحِـــــــــي
وحطمْتُ أَقْدَامِي عَلَى شَفَة الهوى ولقد حطمت على الظمأ أقدَاحِي أقدَاحِي[1]

فقد جعل من ثنائية الإيمان والشك حلقة قلقة من مستقبل غامض، فالغد مجهول والحاضر لا يغري ويقول في هذا:

غَدُك الغامضُ إيمان كَشَكِّي وانتِظَارٌ سئمت منه النُّجُوم[2]

3- الاغتراب الزماني

وهذا الاغتراب يتمثل في شعور الإنسان بعدم تواؤمه بالعصر الذي يعيش فيه، فيأمل أن يعيش في زمان غير زمانه وفي خضم التعارض مع مقتضيات الحياة من جهة والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها من جهة أخرى، يجد نفسه أمام أكبر العراقيل والعقبات ليتنامى داخله الشعور بالاغتراب فيلجأ إلى الخيال كوسيلة للهروب والرحيل فكرياً، وقد تختلف وجهة الهروب إما إلى الماضي، أو إلى الحاضر، والواقع يظهر لنا أن الهروب إلى الماضي بديل ارتآه الإنسان عوضا عن زمانه الحاضر الذي يعيشه ولعلّ الشاعر بهروبه إلى الماضي يسعى إلى استحضار الحياة والقيم والتقاليد التي يمكن من خلالها معالجة سوء الحياة الحاضرة.

4- الاغتراب العاطفي

من طبيعة النفس البشرية الميل إلى العزلة وتفهم (الأنا) فهما صادقا وتبحث في سبل التغلب على عزلتها كاللجوء إلى الحب مثلاً أو الصداقة، ولكن إذا أخفق المغترب في الحب سيجد نفسه أمام اغتراب عاطفي.

[1] عبد الوهاب البياتي، الديوان (ملائكة وشياطين)، دار العودة، بيروت، لبنان، مجلد1، 1971م، ص 48
[2] عبد الوهاب البياتي، الديوان (ملائكة وشياطين)، مصدر سابق، ص 120

وهذا ما عاشه السياب، حيث مرّ بعدّة تجارب عاطفية، تنقل من خلالها من امرأة إلى أخرى فلم يلق منهنّ ما يعوضه فقدان حنان الأم والجدّة وعطف الأب، فلم يكن يريد السياب المرأة «للتعبير عن حاجة تفرضها فتوته فقط، بل يريدها رفيقة حياته وبؤسه وحرمانه»[1]، فافتقاره للوسامة حال دون حصوله لامرأة تتقاسم معه آلامه وآماله. وفي اعتراف الشاعر بأن كلّ اللائي أحبهنّ لم يبادلنه الحب قوله:

وما مِن عادتي ماضي الذي كانا
ولكن... كل من أحببت قلبك ما أحبوني
ولا عطفوا عليَّ، عشقت سبعا...[2]

فالفراغ العاطفي الذي عاناه السياب جاء مقترنا بالتمني المستحيل.

في سياق آخر نجد أن السياب عاش نوعاً آخر من الاغتراب العاطفي وتمثل في مرضه العضال وقد مال إلى الحب الحسّي نتيجة مرضه، فظهرت رغبة قديمة عجز عن إروائها فلم يجد امرأة تبادله الحب وتمنحه أمنيات لطالما طال انتظاره لها، ليوقظ الموت رغبة لم تنطفئ شعلتها فيقول:

تشهيتُك البارحة
فقبَّلْتُ ردن الرداء: هنا ساعداها
هنا إبْطُها، بالكهف الخيال
ومرفأ ثغري إذا جرفته رياح ابتهال
ودحرجه مد شوق ملح، وقد حار السؤال[3].

من خلال الخيال المتشظى ترتسم أمام السياب صورة للجسد العاري بكل إغراءاته، فالذي لم ينله بالمتعة الحقيقية المتبادلة بينه وبين من يحبّ، رسمه في خياله الحسي. ونجده في قصيدة "سفر أيوب" يقول:

تدحرج؛ عُرّي النهدان، بان الجيد والسّاقُ

[1] د. داود سلوم، مقالات عن الجواهري وآخرين، مطابع دار النعمان، النجف، 1971م، ص 190
[2] بدر شاكر السياب، الديوان (شناشيل ابنة الجلبي)، مصدر سابق، ص 639
[3] بدر شاكر السياب، الديوان (منازل وأفنان)، مصدر سابق، ص 244

تدحرج لي على الجُنُب
تدحرج ثم صكّ أضالعي، وتثار أعراق
ويطفر للجبين دم، ويعروني
دوار منه تصطك النواجذُ خوف بحار
يطل فيبصر التيار يزفر مثل تنين[1].

يصوّر السياب في قصيدته "سفر أيوب" جسد امرأة تبادله الحب مستعيداً الرغبة في امتلاكها، وهو بذلك يجسد لنا اغترابه العاطفي، ونلمس فيه ممارسة خيالية لاشتهاء جسد لطالما تمنى بلوغه في الواقع.
وبالعودة إلى الشاعرة "نازك الملائكة" فإن تجربتها بالحب اعترتها فاجعة بالغة، فقد كانت تخوض من خلال الحب تجربة سمو مميزة فتقول:

في نفْسِي جزء أبدي لا تفهَمُهُ
في قَلْبِي حلم علويّ لا تعلمه[2]

وفي مقام آخر نجد قصيدتها "الزائر الذي لم يجيء" التي تكشف فيها حبيبها الغائب قائلة:

ولو شئت جئت، وكنا جلسنا مع الآخرين
ودار الحديث دوائر، وانشعب الأصدقاء
أما كنت تصبح كالحاضرين[3]

تتطلع نازك لحبيب يشبه الطيف العابر، فهي لم تره يوماً، فهو حبيب يسكن في الحلم الأثيري المتنامي وهنا ينبئنا نصها الشعري بغربة الشاعرة العاطفية، فهذه التجربة قادتها إلى عزلة واغتراب عاطفي مشحون بالخوف والقلق لتقرر فتح جذر غربتها على غربة روحية تسعد فيها وتسلم نفسها لحلم طويل من التأمل والسفر داخل الذات لتعتزل واقع خانق عاشت فيه القيم الحسية وسيطرت عليه الماديات.

[1] بدر شاكر السياب، الديوان مصدر سابق، ص 244
[2] نازك الملائكة، الديوان، مجلد1، ص 492
[3] المصدر نفسه، ص 330

5- الاغتراب المكاني

لقد شكل المكان (الوطن) على الدوام هاجساً أصبح مع الوقت قضية واضحة، ولا سيما حين يضطر الإنسان مغادرة المكان نتيجة ظروف قاسية ليحل في مكان آخر جديد، كل شيء غير مألوف، فينشأ لديه الشعور بأن المكان غريب عنه أو هو من أصبح غريباً في هذا المكان، ولكي يعوض هذا الشعور الغريب بالمكان فإنه يشعر بالحنين إلى موطنه، وينساق وراء خياله ليستحضر صوراً وذكريات وطنه أو حتى ماضيه مع المكان الذي ترعرع فيه، وصور الأحبة والأخلة.

أما عند الشعراء الرواد ، فنجد لهم مواقف متنوّعة من المدينة التي تراوحت بين الرفض والقبول على حسب الظروف التي نشأ فيها، ومن أشكال الاغتراب التي عانى منها، وبالتالي فالموقف من المدينة انعكاس الموقف من المجتمع.

«فالسياب نزح من قرية صغيرة ودخل المدينة وهو يعاني الاغتراب الاجتماعي، لم تعد بغداد مكان مألوف لديه لأنّها عجزت أن تمحو صورة جيكور أو تطمسها في نفسه»[1]. فقد خذلته عاطفياً وسياسياً كما يقول إحسان عباس، ونجد السياب يقول:

وتلتف حوْلِي درُوبُ المدينة
حبالاً من الطين يمضغن قلبي
حبالاً من النار يجلدن عرى الحقول الحزينة[2].

حلت صورة المدينة في بشاعتها صورة جيكور وبراءتها وطهرها، وسبب نفور السياب من المدينة لأنها لا تجود بالسخاء والنقاء كما القرى، وقد عجزت هذه المدينة أن تداوي جراحه وتحقق أحلامه. فنجده يقول:

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب

[1] إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مطابع اليقظة، 1978م
[2] بدر شاكر السياب، الديوان (أنشودة المطر)، المجلد الأول، ص 414

سحائب مرعدات مبرقات دون أمطار[1].

ولا يخفى أن موقف السياب من المدينة له داع بالإمكان تسميته بالنفي، فالحضارة التي تعيشها المدينة، وهي خصم السياب في الواقع عانى فيها خيبات عاطفية وهزائم سياسية، ليتنامي لديه تراكم نفسي منها ما يعبر عنه أحيانا بالرجوع إلى القرية (جيكور) البسيطة الصافية من خبث وجراثيم المظاهر المدنية.

ويقول السياب في قصيدته "جيكور المدينة":

وفي كل مستشفيات المجانين
في كل مبغى لعشتار
يطلقن أزهارهنّ الهجينة
مصابيح لم يسرج الزيت فيها، وتمسسه نار[2].

كان من المفترض أن تنشأ بين الشاعر والمدينة ألفة، لكن صدمته المدينة وزادته حدة وتعقيداً، بسبب مآسي الشاعر الوجدانية.

أما الشاعر "البياتي"، فهو ابن المدينة نشأ فيها وترعرع يقول:

في ليالي الموت والخلق، وفي الأعماق
أعماق المدينة
لم تزل كالهرة السوداء، كالأم الحزينة
تلد الحياء، في صمتٍ، وأعماق المدينة
تبصق الموتى، على الأرصفة الغُبر السخينة[3].

[1] بدر شاكر السياب، الديوان مصدر سابق، ص 486-487
[2] المصدر نفسه، ص 417
[3] عبد الوهاب البياتي، الديوان، (يوميات سياسي محترف)، اللمجلد الأول، ص 428

يشي النص الشعري بموقف البياتي تجاه المدينة حيث اقترنت المدينة عنده بصورة السل والخوف والجريمة، وهي نتيجة حتمية لتسلط المؤسسة السياسية الحاكمة، فقد تركت الشعب للجوع والفقر، والجهل والمرض.

ويتجسد لنا موقف آخر للبياتي فقد أعلن إدانته لمن استباح مدينته واعتدى على حرماتها، فهي غريبة مثله تعاني من الخوف وتقاسي من التعسف يقول:

مدينتي أشباحها الغجر
مدينتي أهلكها الضجر
مدينتي القمر
يخاف من بيوتها المنفوخة البطون
يخاف من عيون
حاكمها الشرير[1].

يرى البياتي أن المدينة هي إحدى ضحايا السلطة القائمة واتسم موقفه هنا بالتعاطف معها ضد الحاكم الشرير.

أما "نازك الملائكة" فموقفها من المدينة مختلف، فهي تعاني في بعض الأحيان من صخبها، فتتمنى لو كان لها كوخ في قرية أو بين الحقول، تقول:

آه لو كان لي هناك كوخ شاعري بين المروج الحزينة
في سكون القرى ووحشتها أقضي حياتي لا في ضجيج المدينة[2].

ونراها استبدلت القرية حينا بالجبال، تقول:

ليتني من بنات تلك الجبال الفنّ حيث الجمال في كل ركن[3].

[1] عبد الوهاب البياتي، الديوان، (المجد للأطفال والزيتون)، اللمجلد الأول، ص 303
[2] نازك الملائكة، الديوان، مآساة الحياة وأغنية للإنسان، المجلد الأول، ص 151
[3] نازك الملائكة، مصدر سابق، ص 155

إن كره نازك للمدينة ومقتها لها ألهمها الرغبة في اعتزال المدينة واللجوء إلى سكينة القرية وجبالها على أن استفحال غربتها النفسية ربما كان وراء تجاوزها "غربة المكان"[1]، وكأن نازك تشعر بالخوف من المدينة كونها مصدر ذكريات أليمة، وهروبها إلى الجبال ما هو إلا فرار من وحشة قاسية حاولت الانسحاب منها إلى ملجأ دافئ في جبل الشمال كما تقول في قصيدتها:

شبحُ المدينة القاتلة
في جبال الشمال الحزين
تسبح الوحدة القاتلة
في الشمال الحزين
عيينا قد سئمنا الطواف
في سفوح الجبال وعدنا نخاف[2].

رفض نازك للمدينة له مبرراته، فهي شكلت لها رمز إحباط وعذاب، وتنامي عمق اغترابها المكاني، لتسمو بروحها الحزينة إلى واقع بريء يتحسس جراحاتها الناشئة في أعماقها، لعل ذلك نتاج تراكم عدة أنواع اغترابية كالاجتماعي والعاطفي، وسواهما لدى الشعراء الرواد (نازك الملائكة، بدر شاكر السياب، البياتي) تمخض عنه رد فعل تعويض لديهم ببلوغ واقع آخر يرسم الحنين إلى الطفولة وهذا النوع من الحنين هو «الهروب الرومانتيكي من الواقع والعودة إلى الماضي أو التوجه إلى المستقبل - إلى عالم الحلم والمثل الأعلى - هو بمثابة تعويض للإنسان بواسطة الوعي عن ذلك الواقع الحقيقي، وتلك الرسالة التي حرم منها المجتمع البرجوازي»[3]. فالسياب يستعيد طفولته في جيكور، وقد استحضر طفولته السعيدة يوم انتظر المطر أمام شرفة ابنة الجلبي يقول:

وأذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور
من خلل السحاب كأنه النعم

[1] ينظر: نازك الملائكة، دراسات في الشعر والشاعرة، تجربة الاغتراب عند نازك الملائكة، عبد الله أحمد المهنا، ص 471
[2] نازك الملائكة، الديوان (شاذيا ورماد)، المجلد الثاني، ص 125
[3] غاتشيف، إضاءة تاريخية على قضايا أساسية، ع3، المجلد الأول، القسم الثالث، ص 125

تسرّب من شقوق المعزف، ارتعشت له الظُّلُمُ
وقد غنّى - صباحاً قبل ... فيم أعدّ؟ طفلاً كنت أبتسم[1].

أما نازك الملائكة فنجدها تفسر حاضرها المزدحم بالأسرار إلى طفولتها الواضحة والبريئة تقول:

أسفاً ضاعت الطفولة في الماضي وغابتْ أفراحها عن جُفُوني
وهي لو تعلمين أجمل ما يملك قلبي وما رأته عُيُوني
حينما كنت طفلة بريئة وبسيطة التفكير واليوم أجهل السر وأحيا في غفلة من
شجوني[2].

ترى الشاعرة حياتها مرتبطة بين طرفي خيط الأمس واليوم، فالأمس كانت طفلة بريئة وبسيطة التفكير واليوم هي تعيش وعي الشباب وتعقد الأحاسيس، وهي بذلك تجمع بين صورتين مختلفتين.

وتبدو طفولة البياتي مع أقرانه مغامرة طفولية، حيث كان بالأمس الفقر سيد الكون الصغير، وبدأت أحلام البياتي تنمو في حقل الصمت حيث الغروب يسري بأشباحه المثيرة فيقول:

وفي الظلام
مأوى الأفاعي والعفاريت الضخامْ
كانت مدائننا الجديدة في خواطرنا تقامْ[3].

هكذا يستعيد البياتي طفولته ويصور اندفاعها نحو الحياة كلما واجه الاغتراب أو لاح أمامه شبح المجهول المرعب.

[1] بدر شاكر السياب، الديوان (شناشيل ابنة الجلبي)، المجلد الأول، ص 597
[2] نازك الملائكة، الديوان (عاشقة الليل)، المجلد الأول، ص 479-480
[3] عبد الوهاب البياتي، الديوان (أباريق مهمشة)، المجلد الأول، ص 223

خاتمة

ولأن الغربة رفيقة الشاعر، ظلت موضوعاً لازم الشعر، وسيبقى مدى بقاء الإنسان، وقد بات واضحاً أن شعور الاغتراب الذي عانى منه الشعراء الرواد كان نتيجة ظروف اجتماعية وسياسية خيمت بثقلها على القطر العراقي خاصة والوطن العربي عامة، فثمة اغتراب اجتماعي ابتلي به هؤلاء الرواد وسعوا جاهدين للتحرر منه بنضالهم وحسهم الثقافي ووعيهم للخلاص من واقع قاس ومخيف، ناهيك عن الاغتراب المكاني الذي نشأ في ظلّه نفور تام للمدينة بسبب عدم بلوغ الأماني المرجوة والخيبات التي وقعوا فيها ليزداد بذلك اغترابهم العاطفي.

وللهروب من كل هذه الاغترابات حاول هؤلاء الرواد بناء حلم طفولي بالعودة إلى عالم طفولتهم واستعادة ماضيهم فيها، وتنوعت الصور والصيغ التعبيرية التي بنى فيها الرواد مدنهم الحلمية.

فبتلك اللوحات الفنية التي عبّر بها الرواد عن ذاتهم الواعية وتطلعاتهم إلى مثل عليا منفتحة على نافذة الكون الآخر سمت أرواحهم فوق الواقع المظلم إلى واقع جميل ونبيل، وقد لامس الاغتراب مستوى الشعر الحديث في بلاغته ولغته وصوره الإيقاعية ليتجاوز المألوف إلى صيغة معاصرة تتفتح على دلالات ابتدع الرواد رموزها الفنية الخاصة بهم، فكانت غربة مركبة متوهجة بإحساس عميق سجّله إنسان مغترب مع روحه.